الفصل السادس

شخصية محمد والعقيدة الإسلامية

" فليست النفس الإنسانية ملكا لأبناء دين واحد ، وليس الكشف عن أسرارها وأغوارها فريضة شرع واحد أو عرف واحد ، وما من شيء يجعل للدين نفسه معنى إن لم تكن النفس الإنسانية ذات معنى وذات قيمة وذات علاقة أصيلة بهذا الوجود أجمع ، فلا يضل معتقد عن هدى عقيدته حين يؤمن بجانب من جوانب عظمتها أو جانب من جوانب النبل والأريحية ...."

- عباس محمود العقاد

obeikandl.com

obeikandl.com

تنجح الدعوات نجاحا منقطع النظير إذا كان هناك تطابق أو تناظر أو تماثل بين العقيدة وشخصية صاحبها . هنا نجد الشخصية صورة صادقة من صور العقيدة ، كل ما هو موجود في العقيدة من قيم ومبادئ ومعايير خلقية ونفسية وعقلية ، تجده ماثلا وتجد صداه في الشخصية ، فقد تشبعت الشخصية وامتلأت بتلك العقيدة ، أو أن العقيدة تجسدت وتخلقت في شخص هذا الإنسان فأنت واجد كل ما في العقيدة في تلك الشخصية ، أو واجد كل ما في الشخصية في تلك العقيدة . هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى ، أن هناك اتفاقات وتوافقات دقيقة بين الشخصية ومتطلبات هذا الزمان والعصر . هنا – أيضا – نجد تطابقا وتلازما بين الشخصية والزمان ، وكأن الشخصية لم تخلق إلا لهذا الزمان ، أو كأن الظروف والأقدار لم تهيئ إلا لتناسب تلك الشخصية ، أو لعظمة وسمو ورقي الشخصية فإن كل زمن هو زمنها ، لأن كل الأزمان تفخر أن تنتسب إليها . وكأن الاثنين – الشخصية والزمان – كانا على موعد أو قدر ، كل منهما كان ينتظر حتى تتهيأ وتتجمع وتتفق الأحوال والظروف فيلتقيا ويتولد من هذا اللقاء تغيير وتبديل في العالم والإنسان .وجميع الدعوات تجمع لها هذان العنصران ، ويتوقف نسبة ومدى نجاحها على مدى التوافق والتماثل بين الشخصية والعقيدة من ناحية والشخصية والزمان من ناحية أخرى .

ونستطيع أن نقول إن جميع الدعوات التي عرفتها الإنسانية وسجلتها نجحت بصورة أو بأخرى أو بنسب متفاوتة ، ولكن جميع الدعوات لم يكن هناك تطابق بين الدعوة وشخصية صاحبها ، كما أنه لم يكن هناك اتفاق وتوافق بين تلك الشخصية وزمنها كما كان الأمر مع العقيدة الإسلامية وشخصية محمد ، لذلك نستطيع القول إنه لم يقدر لأي دعوة أن تنجح كما نجحت الدعوة الإسلامية، إن أي دعوة لم توفق فيما توقعته وطلبته كما نجحت الدعوة الإسلامية .

أما من ناحية التطابق بين العقيدة وشخصية محمد ، فإن محمداً خلقاً وخلقاً ترجمة صادقة وحقيقية ووافية لتلك العقيدة ، تلازم بين الاثنين وكأنهما شيء واحد ، فأنت إذا آمنت بمحمد فقد آمنت بالله ، وإذا أنت أطعت الرسول فقد أطعت الله ، وإذا أطعت الله فقد أطعت الرسول ؛ لأن ما يقول به محمد قد تلقاه عن الله ، وإيمانك بالله متضمن إيمانك بالرسول ، هنا الفروق الدقيقة امحت بين العقيدة والشخصية ، فإذا كانت العقيدة تعلو من شأن العقل والفكر فمحمد أول من يعلو من هذين الأمرين ، وإذا كانت العقيدة واضحة ومباشرة وبسيطة،فإن شخصية محمد واضحة وبسيطة ومباشرة ، يحكم بذلك كل من اتصل به وتعامل معه ، وإذا كان في العقيدة تصور واضح وشامل وكامل لنظرية في الكون والوجود وخالق الكون والوجود ، فإن أفعال وتصرفات وأقوال محمد تبرز وتؤكد وتؤصل هذا التصور وهذه النظرية . " وعندما جرى قدر الله أن يجعل طبيعة هذه العقيدة هكذا جرى كذلك باختيار - رسولها - ﷺ - إنساناً تتمثل فيه هذه العقيدة بكل خصائصها ، وتتجسم فيه بكل حقيقتها ، ويكون هو بذاته وحياته الترجمة الصحيحة الكاملة لطبيعتها واتجاهها ، إنساناً قد اكتملت طاقاته الإنسانية كلها . ضليع التكوين الجسدي ، قوي البنية ، سليم البناء ، صحيح الحواس ، يقظ الحس يتذوق المحسوسات تذوقاً كاملاً سليماً وهو في ذات الوقت ضخم العاطفة حي الطبع ، سليم الحساسية ، يتذوق الجمال ، منفتح للتلقي والاستجابة ، وهو في الوقت ذاته كبير العقل ، واسع الفكر فسيح الأفق ، قوي الإرادة ، يملك نفسه ولا تملكه ... ثم هو بعد ذلك كله .... النبي ... الذي تشرق روحه بالنور الكلي ، والذي تطيق روحه الإسراء والمعراج ، والذي ينادي من السماء، والذي يرى نور ربه ، والذي تتصل حقيقته بحقيقة كل شيء في الوجود من وراء الأشكال والظواهر ، فيسلم عليه الحصى والحجر ، ويحن له الجذع ، ويرتجف به أحد - الجبل..! ثم تتوازن في

شخصيته هذه الطاقات كلها . فإذا هو التوازن المقابل لتوازن العقيدة التى اختير لها "[٧٣] .

هذا التوازن بين شخصية محمد والعقيدة الإسلامية لم يحدث هكذا بدون معالجة ، ومجاهدة ومشقة ومعاناة من محمد ، وإنما بذل كل ما فى وسعه واستنفر واستخدم كل طاقاته لتكون شخصيته متوافقة ومتشربة للعقيدة ، لأن جانب كبير من شخصية محمد من صنعه هو ، من إرادته وتصميمه وعناده وعزته وكبريائه محمد لم يجد نفسه هكذا – بدون إرادة منه – متفقا ومتوافقا مع العقيدة ، الأمر فى حاجة إلى نظر وتفكر ، وتدبر ، الأمر فى حاجة إلى مجاهدة ومكابدة ومعاناة ولا ننكر أن بعد كل ما بذله محمد كان هناك العون الأكبر من الله – عز وجل – ولولا عون الله ما قدر هذا النجاح لمحمد ولا للدعوة .

والمراجعات التى حدثت من الله لنبيه نوع من إرشاد الله لنبيه أن يكون متطابقا مع العقيدة ، مسايرا لمبادئها ، متمشيا مع جوهرها ، ناطقا بلسانها مجسدا قيمها ومبادئها ، ومن تلك المراجعات :

- **زواج رسول الله من " زينب بنت جحش ".**

حينما قال رسول الله – ﷺ – لزيد بن حارثة : ((امسك عليك زوجك)) لم يكن محمد رسول الله هو الذى يتكلم،ولكنه كان محمد الرجل العربي المحمل بعادات وتقاليد المجتمع العربي الإصيلة .

لم يكن محمد رسول الله هو الذي يتحدث ولكنه الوالد الذى قام بتزويج ابنة عمته ((زينب)) بوليه ((زيد)) ولكن من ((زيد)) ؟ وما علاقة الرسول به ؟ " ((زيد بن حارثة بن شراحبيل بن كعب)) من بني زيد اللات ، خرجت به أمه ((سعدى بنت ثعلبه)) لتزيره أهلها بني معن بن طيئ ، فأصابته خيل من بنى القين بن جسر ، فباعوه بسوق من أسواق العرب ، وكان ((حكيم بن حزام بن

٧٣- فى ظلال القرآن – سيد قطب – المجلد السادس – صفحة – (٣٦٠٩)

خويلد)) هو الذي اشتراه ، وجاءت ((السيدة خديجة)) وهي يومئذ زوج محمد بن عبد الله ، تزور ابن أخيها ، فعزم عليها أن تختار من شاءت من مواليه ، فأخذت ((زيدا)) وعادت به إلى بيتها . ورآه سيدنا ((محمد)) فاستوهبه منها فوهبته له راضية ، وكان ((حارثة)) أبو زيد قد جزع عليه أشد الجزع ، وخرج يلتمسه حتى سمع بمكانه في مكة . فانطلق مع أخيه ((كعب)) حتى وقفا على محمد بن عبد الله فقالا له : ((يا ابن عبد المطلب ، يا بن سيد قومه . أنتم جيران الله تفكون العاني وتطعمون الجائع ، وقد جئتك في ابننا فتحسن إلينا في فدائه ؟))

سألهما محمد : أوغير ذلك ؟

قالا : ما هو ؟

أجاب : أدعوه وأخيره ، فإن اختاركما فذاك ، وإن اختارني فوالله ما أنا بالذي احتار على من اختارني أحدا .

قالا معا : قد زدت على النصفة .

ودعي زيد ، فعرف أباه وعمه ، وخيره محمد : إن شاء ذهب معهما وإن شاء أقام معه .

فاختار سيده !

وتوسل أبوه في ضراعة : ((يا زيد ، أتختار العبودية على أبيك وأمك وبلدك وقومك ؟))

فتماسك ((زيد)) ليجيب : ((إني قد رأيت من هذا الرجل شيئا ، وما أنا بالذي أفارقه أبدا))

فعند ذلك أخذ محمد بيده ، وقام به إلى الملأ من قريش فأشهدهم أن زيدا ابنه وارثا وموروثا .

ودعي الغلام : زيد بن محمد . وكان أول من أسلم بعد ((على بن أبى طالب)) . وعندما هاجر الرسول إلى المدينة وآخى بين أصحابه كان زيد وحمزة عم المصطفى أخوين " [٧٤]

ما فعله رسول الله – ﷺ – كان عادة شائعة بين العرب . وتقليدا راسخا رسوخ الجبال فى الوجدان العربي حينئذ . تواترت عليه أجيال وأجيال . " وقد كان العرب فى الجاهلية يلحقون بعض الأجانب بأولادهم ويعطون الدعي جميع حقوق الولد في الإرث وحرمة النسب وغيرهما . وكانوا أيضا يخلعون أولادهم من نسبهم ؛ فيأتي الرجل منهم بابنه إلى الموسم ويقول " ألا إنى قد خلعت ابني . فإن جر لم أضمن ، وإن جر عليه لم أطلب . فلا يؤخذ بجرائره " [٧٥]

إذن أعتبر محمد أن زيدا ابنه .

واتخذ زيد محمدا أبا له .

وأقر المجتمع واعترف بتلك العلاقة وشهد على ذلك .

ولكن فى الحقيقة أن زيدا ليس ابنا لمحمد .

وليس محمد أبا لزيد .

وإن إقرار المجتمع على ذلك نوع من مصادمة تلك الحقيقة . وشهادته نوع من التزوير.

وما كان الله ليذر المجتمع الإسلامي فى مصادمة للحقيقة . فكان لابد من تصحيح هذا الوضع . ووضع الأمور فى نصابها الصحيح . لأن هذا الأمر يمس قضية الأنساب فى الصميم . وبقاء المجتمع – أي مجتمع – سليما معافيا مرتبطًا بتلك القضية . " فلما كانت السنة الخامسة من الهجرة أراد الله تعالى أن يبطل عادة

٧٤- نساء النبي - د . عائشة عبد الرحمن - صفحة (١٦٠)

٧٥- القضايا الكبرى فى الإسلام - عصر النبي ﷺ - د . عبد المتعال الصعيدي - صفحة (٢٧)

التبني ؛ لأنها عادة ظالمة باطلة؛إذ لا يصح للرجل أن يكون له حق إرث أقربائه، ثم يأتي بأجنبي عنهم فيجعل له حق إرثه ، فيحرمهم منه أو يشاركهم فيه .

هذا إلى أن الولد قطعة من أبيه ، فلا يصح أن يكون أجنبي عنه ولدا بقول ينطق به لسانه ، فما كان قول اللسان ليغير واقعا ، أو ليثبت باطلا "[٧٦].

لذلك ستنال تلك القضية اهتماما كبيرا من القرآن الكريم ، والذي سيحمل العبء الأكبر ، والمشقة العظمى هو رسول الله كما سنعرف بعد .

من ((زينب بنت جحش)) ؟

" هي زينب بنت جحش بن رئاب ، الشابة الشريفة الحسناء ، سليلة بني أسد بن خزيمة المضري ، وحفيدة عبد المطلب ، وابنة عمة محمد ﷺ .

وصفتها الرواية بأنها ((كانت بيضاء سمينة من أتم نساء قريش)) وكانت معتزة بهذا الجمال، كما كانت معتزة بنسبها الرفيع في آل سبد البشر "[٧٧].

شخصية من طراز رفيع حسبا ونسبا وجمالا ، وشعور جارف بالاعتزاز بهذا الأصل ، وزادها اعتزازا صلتها وقرابتها من النبي . كل هذا عمق وأصل لديها الإحساس بالعزة والكبرياء والشموخ والأنفة ، وقد اصطلى زيد بنيران تلك المشاعر والأحاسيس لدى زينب ، وقد وضح هذا حينما سأله النبي حينما استأذنه في طلاقها ، فسأله عنها فقال : ((لا والله يا رسول الله ، ما رابني منها شيء ، ولا رأيت إلا خيرا ، ولكنها تتعاظم على لشرفها وإن فيها كبرا ، تؤذيني بلسانها)) . والأهم من كل ذلك أنها كانت ترى استحقاقها بأن تكون زوجا لرسول الله،يزكيها ويرشحها لذلك صفاتها ، وقرابتها للنبي ، فقد تزوج النبي ممن هن دونها شرفا وحسبا ونسبا وجمالا وقرابة ، فلم لا تطمع وتأمل أنه في يوم من الأيام سيدق النبي بابها خاطبا ؟ وتصبح زوجا للنبي .

٧٦- المرجع السابق – صفحة (٢٨)
٧٧- نساء النبي – د . عائشة عبد الرحمن – صفحة (١٥٩)

حينما نقارن بين حقيقة ووضع ((زيد)) ، وحقيقة ووضع ((زينب)) نجد أن الهوة واسعة جدا ، وأن يجمع بينهما برباط الزوجية ، هذا في حد ذاته شيء صعب وعسير ، ناهيك على أنه عجيب وغريب ، ولكن الشيء الوحيد الذي يسوغ هذا الزواج ويجعله سهلا ويسيرا ، وليس بالعجيب ولا الغريب أن زيدا هو ((ابن محمد)) فكونه ابن محمد يزيل كل الفوارق والاعتراضات ، ولكنه في الحقيقة ليس كذلك . وهنا المعضلة أو هنا الإشكال .

فقد رضيت وارتضت كل الأطراف ، أن يكون زيد ابنا لمحمد ، و مع ذلك حينما وضعنا هذا الاعتبار في محك التجربة سقط سقوطا مريعا ، فقد رفضت ((زينب)) ورفض أهلها ((زيدا)) ولم يشفع له أنه ابن لمحمد ، لأنه في الحقيقة والواقع ليس كذلك ، ولم تستجب ((زينب)) ولم يخضع أهلها لأمر هذا الزواج إلا لأنه أمر قضى به الله والنبي ونزل به قرآن ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ ﴾ الأحزاب: ٣٦

إذن ما حدث بين ((زيد)) و ((زينب)) ليس زواجا في حقيقته ، وإنما هو أكبر وأجل وأعظم وأخطر من رغبة وإرادة تتوافر عند رجل وامرأة ويبارك تلك الرغبة والإرادة أهل كل من الرجل والمرأة ، إن ما تم كان استجابة لأمر الله – عز وجل – ورسوله – ﷺ – وليس ثمة أمر مع أمر الله ورسوله ، ولكن وإن قبلت ((زينب)) بأمر زواجها من ((زيد)) إلا أنها لم تتخذه زوجا ، بمعنى أن الحب لم يجد طريقا إلى قلب زينب ،وظلت كارهة ونافرة من زيد ، نعم هي استجابت فيما تملكه .. وافقت وارتضت وقبلت ما أمر الله به والرسول ، ولكن أمر الحب للزوج هي لا تملكه ، ولا تملك التصرف فيه ، " فلما سمعت زينب وأخوها بذلك رضيا بـ ((زيد)) ، وجعلت زينب أمرها بيد النبي – ﷺ – فأنكحها ((زيدا)) واختارها زوجا ، ولم تكن في قرارة نفسها راغبة فيه ، ولم يكن قد طلبها زوجا

ولكنها إرادة الله تعالى . والحقيقة أنها كانت تراد زوجا للنبي - ﷺ - فلذا اختيرت دون غيرها ممن يضاهى ((زيدا)) فى نسبه ؛ لكيلا يكون على النبي حرج إذا صارت إليه ، ولتكون لائقة به إذا طلقها ((زيد)) وصارت زوجا له ، وقد اختير لـ ((زيد)) فى المرة الأولى ((أم أيمن)) وهي مولاة مثله ؛ لأنه يراد أن تكون زوجا له ، واختير له هذه المرة ((زينب)) وهى تعلوه فى النسب ؛ لأنها كانت تقصد لغيره بعد طلاقها منه ، ولم تكن تقصد له "[٧٨] .

إذن هذا الزواج منذ اللحظة الأولى كان معلوم المصير ومعروف النهاية وكما يقولون بداية الأمور تنبئ عن خواتيمها ، وأنت تستطيع أن تعالج وتداوى وتقوم كثير من الأمور المعوجة بعض الشيء إلا الزواج ، فهذا الأمر يستعصى على العلاج والمداواة والتقويم ، لأن الأمر ليس بيد أحد إلا الله تعالى ، " ودخل بها ((زيد)) بعد ذلك ، ولكنها لم تستطع أن تحمل نفسها على حبه ؛ لأن الحب من صنع الله تعالى وليس من صنع البشر ، والزواج إذا لم يكن معه حب لا تحصل به ألفة بين الزوجين ؛ ولهذا لم يلبث ((زيد)) و ((زينب)) أن ساءت عشرتهما لأنها كانت تتعالى عليه بنسبها ولم يكن يطيق ذلك منها "[٧٩] .

كانت تتعالى عليه بنسبها .

وهو لم يكن يطيق منها ذلك .

إذا لم تستطع العلاقة الزوجية أن تمحو أو تخفف من حدة ما كانت تشعر به ((زينب)) من جفوة ونفور نحو ((زيد)) بسبب الفارق أو المركز الاجتماعي أو حسبها وأصلها .

ولم يستطع ولم يطق ((زيد)) منها هذا التيه والفخر والتكبر والتعالى عليه.

٧٨- القضايا الكبرى فى الإسلام - د . عبد المتعال الصعيدى - صفحة (٢٩)

٧٩- المصدر السابق - صفحة (٢٩)

وهذا – فى حد ذاته – ينفى تفسير البعض أن إقدام الرسول على تزويج زيد بزينب إنما كان مقصد الرسول تذويب الفوارق بين الموالى والأحرار ، ومحو المسافات بين طبقات المجتمع الإسلامي ، ليبقى معيار التفاضل بين الناس هو تقوى الله ، نعم هذا مقصد من المقاصد الإسلامية – وهو من أنبل وأشرف المقاصد – ومسعى من أجمل مساعى الرسول ، ولكن هذا لا يتم ولا يكون بأن نوفق ما لا سبيل إلى توفيقه ، أو أن نجمع ما لا حيلة لنا فى تجميعه ،فهذا نوع من التعسف والتعنت ، وتبسيط مخل للقضية ، بأن نزوج بنات الطبقة الشريفة أو العليا أو التى تظن أنها قد حازت من المكرمات والفضائل ما يجعلها ذات وضع واعتبار فى المجتمع ، من أبناء الطبقة الأقل فى ذلك أو الأفقر ، وبذلك تمحى الفوارق الطبقية فى يوم!! .

كل هذا لم يغب عن ذهن رسول الله ، فهو يدركه تمام الإدراك ، ويفهمه كامل الفهم ، وأن أمر هذا الزواج وراءه شيء يمس بنيان المجتمع الإسلامي فى الصميم ، ويتعلق بالعقيدة الإسلامية فى العمق . لقد تم الزواج ، وباقي أن تظهر الحكمة من ورائه . تلك الحكمة التى ستتبدى شيئا فشيئا ، وتظهر بجلاء ووضوح مع تصاعد الأزمة بين الزوجين ووصولهما إلى مأزق لابد من الخروج منه بأي صورة من الصور.

وكان الرسول – ﷺ – يعلم ما يحدث بين زيد وزينب من منازعات وخلافات ، بدأت فى البداية بسيطة هينة ، شأن أي خلافات ومنازعات بين زوجين ، ثم بدأت تأخذ طريقها إلى التعقيد والتعسر ، وحينما أيقن ((زيد)) باستحالة الاستمرار ، ذهب إلى رسول الله يستأذنه أن يطلق ((زينب)) .

هنا بعد إنساني ينبغي ألا نغفله ،وهو وصول ((زيد)) إلى قرار الطلاق فهو يعلم درجة القرابة بين زينب والرسول ، ويعلم أن هذا الزواج قد تم برغبة الرسول وعن أمر الله ، وأن هذا الزواج قد منحه الكثير من الامتيازات

والصلاحيات فقد انتسب انتسابا حقيقيا إلى عائلة النبي . فهذا مكسب أدبي ومعنوي . لا أحد ينكره . ولا زيد نفسه . وان الطلاق سيعصف بكل تلك الأمور والأهم أنه قد يغضب الرسول . والراجح أن قرار الطلاق لم يصل إليه في يوم وليلة وإنما استغرق الأمر وقتا . وأنه حاول كثيرا أن يتحمل الوضع ولكنه لم يستطع وحاول أكثر أن يجد مخرجا من هذا المأزق ولكنه لم يجد . ولا نستبعد أن ((زينب)) هي الأخرى قد حاولت أن تصبر وتتحمل هذا الوضع بكل ما فيه من مشقة ومعاناة نفسية وعصبية ولكنها لم تطق . ولم يعد لديها طاقة وقدرة لتتحمل المزيد . وكذلك لا نستبعد أن يكون قرار الطلاق والوصول إليه قد تم بالاتفاق بين الاثنين ((زيد)) و ((زينب)) فهما الاثنان في مأزق وأزمة والطلاق يمثل - للاثنين - خروجا من هذا المأزق وتلك الأزمة . فلم نستبعد أن يكون الاثنان قد وصلا إلى قناعة . وتراضيا بهذا الأمر ؟

حتى ولو لم يصلا إلى اتفاق على هذا الأمر فإن هذا الحل يرضي الطرفين ويخرجهما من مأزقهما .

وما كان لزيد أن يشرك الرسول في هذا الأمر . أو يستأذنه في الطلاق إلا بعد أن وصل إلى قناعة ويقين باستحالة استمرار العلاقة الزوجية . وهذه القناعة وهذا اليقين لا يصل إليه الزوج إلا إذا علم أن الطرف الآخر له نفس الرغبة في الفراق . إذن بقاء العلاقة الزوجية مع توافر كل تلك الأمور نوع من العنت والحرج وفيه الكثير من المشقة والمعاناة . بل والعذاب . إذن العلاقة الزوجية انتهت وانفصم عراها بين الاثنين . باقٍ شيء واحد هو الإعلان عن هذا الأمر للآخرين وكان أول هؤلاء هو رسول الله - ﷺ - وتبين للرسول في هذه المرة عزم وتصميم ((زيد)) على الطلاق . وأنه لا رجعة عنه . هنا يتدخل الرسول في تلك العلاقة وقد أظهر له زيد نيته . فيراجعه . وطلب منه ناصحا الحفاظ على تلك العلاقة . إما أنه قال ذلك من منطلق بشريته التي كانت تتصدر الموقف في تلك اللحظة . أو قال

ذلك ليعرف إذا كان هناك في نفس زيد بقية من رغبته في استمرار تلك العلاقة بغض النظر عما يعرفه رسول الله بشأن ما يتعلق بمصير تلك العلاقة . وما سوف يترتب عن فصم عراها . أو شفقة على ما سوف يجلب على ((زينب)) من ألم وإحساس بالهوان . فمهما كان الطلاق حلا لمأزق إلا أنه يسبب جرحا للمرأة . وفي الحالتين – الزواج والطلاق – بالنسبة لزينب فقد ظلمت .

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ ﴾ الأحزاب ٣٧ - ٤٨

والآيات الكريمة تعرض أكثر من قصية :

أولا : قول رسول الله لزيد (امسك عليك زوجك)

وشيء طبيعي ، وشيء منطقي ، والبادرة الأولى التي تصدر عن النبي – مع وضع الاعتبارات السابق ذكرها في الحسبان – أن يقول : امسك عليك زوجك واتق الله .

وإن لم يقل ذلك ، فعدم قولها لا يتسق مع شخصية محمد ، وقولها يتفق تمام الاتفاق مع شخصيته العظيمة ، لقد قالها وهو يعلم أن زواج زيد من زينب ليس زواجا عاديا ، إنه يخفى وراءه أمورا كثيرة ، وهو يجمع بين طرفين مختلفين ومتناقضين ، وكل منهما غير كفؤ للآخر ، ((زيد)) من الموالى ، و((زينب)) من أشرف قريش نسبا .

إذا كان الزواج يستدعى القبول والإيجاب ، فإن عنصر الإيجاب لم يكن متوافرا ، فزينب وأخوها قد رفضا – فى البداية – هذا الزواج ، ثم انصاعا حينما نزل فى هذا الأمر قرآن .

ثانيا : ما أخفاه الرسول فى نفسه وأبداه الله تعالى .

ليس كل ما يعرف يقال ، حتى لو أراد الإنسان قول ما يعرفه فقد يتردد كثيرا ، فهو يتحسب لأمور كثيرة ، وقد يرى أن هناك حرجا فيما يقوله ، أو أن مركزه ووضعه بالنسبة للآخرين يمنعه ، أو أن وضع الآخرين بالنسبة له يضع على قوله بعض المحاذير ، أو أن ما سيقوله قد يثير جدلا ولغطا حوله ، أو أن ما يقوله يتعلق بأمور شديدة الحساسية ، لذلك فهو يؤثر الصمت ، أو ينتظر ويحاول تجميد الموقف ككل ، أو تحميد موقفه هو من القضية ، إلى أن تتبدى وتظهر أمور ، أو تتدخل عناصر أخرى ، ترفع الحرج والعنت ، وتعفيه من هذا الأمر .

فى البداية ذهب رسول الله – ﷺ – إلى ابنة عمته ((زينب)) خاطبا إياها لابنه ((زيد)) ، ظنت ((زينب)) إن الرسول يخطبها لنفسه ، وإذا بها تكتشف أنه يريدها لزيد ، تغضب ويغضب أخوها ويرفضا ((زيد)) ، وإذا بالوحي ينزل على رسول الله ، فتخضع وتنصاع زينب وأخوها لقضاء الله ورسوله .

ويتم الزواج ، ولولا ما نزل من قرآن لتمسكت زينب بموقفها ، رغم أن الرسول قد زكا زيد وعدد فضائله ومكارمه ، ولكن الذي دفع رسول الله ليطلب زينب لزيد هو أنه ابنه ، ولكن هذا الاعتبار لم يكن له قيمه عند زينب وأخيها ، فكل

ما فعله رسول الله لزيد لم ينس أحدا أنه ليس ابنا لمحمد ،وقضية النسب والمصاهرة تستدعي الأصول وبصفة خاصة في المجتمع العربي ، والناس قد يجاملون ويتساهلون ويتسامحون إلا فيما يتعلق بمسألة النسب والزواج ، فهنا الأصل له الكلمة العليا والفصل ، وليس أي شيء آخر ، أو قل إن الحقيقة هنا تفرض واقعها بكل قوة وإقناع ، فأنت لا تستطيع أن تأتي بشخص وبكلمة منك وبموافقة المجتمع وتمشيا مع التقاليد أن تجعل هذا الشخص ابنا لك ، فأنت قد أخذت حق الأب الحقيقي ، وفي نفس الوقت أخذت ما ليس بحقك وفي نفس الوقت عارضت الحقيقة وتصادمت مع الواقع ، وتحاصمت مع المنطق !!

وقد أظهر القرآن الحكيم تلك القضية بكل جلاء في بداية سور (الأحزاب):

﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ الأحزاب: ٤-٥

كل هذا تجمع للنبي ، ونتيجة زواج زيد بزينب دفعت الأمور في مسارها الطبيعي والواقعي ، أن زيد لابد أن يطلق زينب ، أو أن زينب لابد أن تطلق من زيد وإذا طلقت ((زينب)) ابنة عمته فما هو وضعها بين الناس ؟

لقد جرحت مرتين – في عرفها ومنطقها – مرة حينما تزوجت ، ومرة حينما طلقت ، وأحس رسول الله أنه مسئول عن هذا الأمر ، ومن غير رسول الله أقدر وأكفأ لتضميد جرح زينب ، ولن يكون هذا إلا بالتزوج من زينب ، ولكنها مطلقة ابنه ، لا ليس ابنه ، فهو ليس من صلبه ، وقد أبطل الله التبني ،ولكن تلك العادة متأصلة في كيان المجتمع العربي ، وما سار عليه المجتمع أجيال فمن العسير الاقلاع عنه ، الأمر في حاجة إلى وقت طويل ، والأهم إلى تجربة حية ، إلى واقع

يلمسونه ، من شأنه أن يزحزح أو يبدد هذا الرسوخ للعادة في الوجدان العربي ويرفع العنت النفسي والمشقة إذا أقدم الناس على شيء كانوا يحرمونه على أنفسهم ، وهو ليس بحرام ، بل الحرام هو ما تعودوا عليه أجيال وأجيال ، ومن غير رسول الله - ﷺ - يتولى فعل ذلك ، ؟ فإذا فعل الرسول ذلك - وهو لابد فاعله - رفع عن الناس الحرج والعنت والمشقة ، وأعطاهم المبرر والقوة والجرأة والشجاعة لإبطال تلك العادة المتأصلة الراسخة ، إذن ليتزوج رسول الله ((زينب)) ، نعم ستكون صدمة للمجتمع الإسلامي وقد تحدث رجة بين المسلمين ، دعك من هؤلاء فقد يتقبلون الوضع بالرضوخ والتسليم ، ولكن هناك المنافقين ،أيضا المرجفين في المدينة ، والكافرين ، ومن لم يستقر - بعد - الإسلام في قلبه ، والمتربصين بالرسول وبالإسلام ، كل هؤلاء ماذا سيقولون ، وماذا سيكون موقفهم ؟

الأمر معقد للغاية ، وحساس للغاية ، وخطير للغاية .

إذن لينتظر الرسول لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا " ولكن النبي كان يعلم هذه القضية من أولها إلى آخرها ، ويعلم أن الله لم يأمر ((زينب)) أن تتزوج ((زيدا))على غير رغبتها إلا ليطلقها فيتزوجها هو بعده ، فكيف يكون له هذا الشأن في القضية ثم يتولى فيها الحكم ، وعمله شريعة تتبع وسنة يأخذ بها الناس ؟ فإذا حكم فيها وله فيها هذا الشأن لم يتحرج القضاة بعده أن يحكموا في القضايا التي يكون لهم شأن فيها ، فيتأثروا فى الحكم بما لهم فيها من مصالح ، ويحكموا فيها بما تقضى به مصالحهم ، لا بما يقضى به الحق الذي يجب أن يحكموا به ... هذا وللنبي - ﷺ - أعداء - من المنافقين وغيرهم - خشي أن يطعنوا عليه فى ذلك الحكم ، وأن يزعموا أنه إنما طلق ((زينب)) من ((زيد)) ليتزوجها ، وأنها حليلة ابنه ، فلا يحل لها أن يتزوجها بعده ، وكذلك خشي على ((زيد)) أن يقوم بنفسه شيء ، وأن يوسوس له الشيطان فيظن به سوءا .

لهذا كله أمسك النبي – ﷺ – في هذه القضية ؛ ليقضي الله تعالى فيها أخيرا كما قضى فيها أولا ، وهذا هو ما يسمى الآن ((تنحي القاضي عن النظر في القضية)) "[٨٠]

إذن ما أخفاه الرسول كان دافعه الحرص أو الحذر أو التوجس لما يكون من رد الناس على تصرفه ، من منطلق بشري محض . لم يكن هناك أمرا صريحا من الله ، ولم يتنزل الوحي على الرسول ، وإلا ما تأخر أو توانى الرسول عن إبلاغ هذا الوحي وإعلان هذا القرآن على الناس ، مهما كانت العواقب والنتائج ، فهو يبلغ ما أؤمر بتبليغه بغض النظر عن أي شيء آخر ، وعتاب الله عز وجل – لرسوله – ﷺ – يرجع إلى هذا ، فطالما يا محمد أن هذا الفعل أنت مقتنع به ، ولا يتصادم مع نص من الشريعة ، بل هناك نص يؤيد ما ستفعله ، وطالما ما ستفعله يخرج زيد وزينب من مأزقهما ، وفيه تضميد لجرح ابنة عمتك ، فلم تنتظر ، ولم تجمد الموقف ؟ " وهذا الذي أخفاه النبي – ﷺ – في نفسه ، وهو يعلم أن الله مبديه ، هو ما ألهمه الله أن سيفعله . ولم يكن أمرا صريحا من الله . وإلا ما تردد فيه ولا أخره ولا حاول تأجيله . ولجهر به في حينه مهما كانت العواقب التي يتوقعها من إعلانه . ولكنه – ﷺ – كان أمام إلهام يجده في نفسه ، ويتوجس في الوقت ذاته من مواجهته ومواجهة الناس . حتى أذن الله بكونه . فطلق زيد زوجه في النهاية ، وهو لا يفكر لا هو ولا زينب فيما سيكون بعد . لأن العرف الساند كان يعد زينب مطلقة ابن محمد لا تحل له . حتى بعد إبطال عادة التبني في ذاتها . ولم يكن قد نزل بعد إحلال مطلقات الأدعياء . إنما كان حادث زواج النبي بها فيما بعد هو الذي قرر هذه القاعدة . بعدما قوبل هذا القرار بالدهشة والمفاجأة والاستنكار "[٨١]

٨٠- القضايا الكبرى في عصر الإسلام – د عبد المتعال الصعيدي – صفحة (٣٠)
٨١- في ظلال القرآن – سيد قطب – المجلد الخامس – صفحة (٢٨٦٩)

ثالثا : قرار زيد الأخير والنهائي ، وموقف النبي .

حرصت الآيات الكريمة أن تظهر موقف زيد من زوجه بما لا يدع مجالا للشك في أي موقف يتخذه النبي ، وهذا يظهر في (فلما قضى زيد منها وطرا ...) "والوطر : الحاجة . وقضاء الوطر : بلوغ منتهى ما تريده النفس من الشيء . يقال : قضى فلان وطره من هذا الشيء : إذا أخذ أقصى حاجته منه .

والمراد هنا : أن زيدا قضى حاجته من زينب ، ولم يبق عنده أدنى رغبة فيها، بل صارت رغبته العظمى في مفارقتها "[٨٢] .

الإنسان العادي لا يصل إلى قرار الطلاق إلا بعد أن يستنفد كل سبل الإصلاح والوفاق بينه وبين زوجه ، فما بالك لو كان الرجل في مقام ((زيد بن حارثة)) الذي اتخذه رسول الله – ﷺ – ابنا له ؟

وما بالك لو كانت زوجته في مكانة ومقام ومنزلة ((زينب)) ابنة عمة رسول الله ؟

وما بالك لو كان هذا الزواج تم وفق قضاء وأمر الله ورسوله ؟

لا شك أن ((زيدا)) لن يصل إلى قرار الطلاق إلا بعد أن تقطعت به كل السبل والطرق والوسائل لدوام هذا الزواج . ولسان حاله يقول أنه استنفد كل ما في طوقه ، وحاول وأعيته المحاولة ، وعالج وأعجزه العلاج ، واستغرق وقتا وجهدا ووصل إلى يقين وإلى تصميم وإصرار، أنه لابد من الطلاق . وليس من شك ، أن النبي كان مطلعا على كل ما يحدث بين زيد وزينب من خلافات ومنازعات ، وإنه كان يعلم – في النهاية – مصير هذا الزواج ، ومع كل هذا قال له (امسك عليك زوجك) وكأن محمد – ﷺ – لا يريد أن يتدخل في القضية ، أو يتدخل ولكن بالإصلاح وأن يحاول زيد أن يبقى على العلاقة الزوجية ، أو أن الرسول أراد أن يبرئ ساحته بأنه لا علاقة له لا من قريب ولا من بعيد بقضية الطلاق ، وإن كان يعتبر نفسه –

٨٢- التفسير الوسيط للقرآن الكريم – د محمد سيد طنطاوي – المجلد الحادي عشر – صفحة (٢١٥)

بصورة أو بأخرى – مسئولا على الأقل أدبيا عن هذا الزواج ، أو أنه كان يعلم ما سوف يقال حينما يتزوج بعد ذلك ، بزينب ، وأن مرضى القلوب ومأفوني العقول سيربطون – بنوع من التعسف والتعنت – بين طلاق زيد من زينب ، وزواج الرسول بها ، وكأن سبب طلاق زينب من زيد هو رغبة الرسول في التزوج من زينب ، وليس العكس فلم يتزوج الرسول بزينب إلا بعد طلاق زيد لزينب ، ثم زواج الرسول من زينب ليس لرغبة الرسول الذاتية وإنما كان أمرا من الله كما نصت الآية الكريمة على ذلك ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ ﴾ الأحزاب : ٣٧

حتى أن ((زينب)) كانت تتيه فخرا ، أن كل نساء النبي ، النبي هو الذي تزوجهم بإرادته ، إلا هي فالذي زوجها له هو الله تعالى ، وبأمر منه . وطالما بأمر الله تعالى فقد انتفت إرادة الرسول ، وإن كانت أوامر الله يستجيب الرسول لها استجابة مطلقة ، لأنه أؤمر بدلك ، ولأن إرادة الله وأوامره هي النافذة ، والفرق بين طاعة النبي لتلك الأوامر وغيره ، إن طاعة النبي لله تكون قلبا وقالبا بمعنى أن كيانه وكل خلية في هذا الكيان مفطورة على طاعة الله ، حتى أن عائشة – رضي الله عنها – قالت حينما علمت بأمر زواج الرسول من زينب ، وإن كان دافعها في ذلك الغضب والغيرة ، قالت : ((وما أرى ربك إلا يسارع في هواك)) [٨٣] . فهي تقصد أن الله يستجيب لما تريده وتهواه ، وكأن السعادة والفرحة التي يشعر بها الرسول وهو ينفذ أوامر الله ، وهذا الانصياع المطلق ، والاستجابة التامة والكاملة ، كل هذا خيل لعائشة أن الله يسارع في استرضاء الرسول !

٨٣- نساء النبي – د. عائشة عبد الرحمن – صفحة (٩٦)

ولكن أما كان من الأولى تجنيب الرسول لهذا الأمر، وكان أحد من الصحابة نهض بهذا العبء ، بأن يتزوج من مطلقة مدعيه ، بموافقة الله والرسول وينزل الله فى هذا قرآنا ؟ وما ثارت الشكوك والشبهات من مرضى القلوب في أمر هذا الزواج ؟

أو يكتفى بأن ينزل قرآن يبيح ما كان العرب يحرمونه من قبل ، فقد نزل قرآن فى أباحة أشياء كان العرب يحرمونها من قبل ؟

تأتى قوة التحريم ومدى حسمه على قدر قوة وتأصل الشيء المراد تحريمه وليس هناك أقوى من تلك العادة تأصلا فى نفوس العرب ، ولن يكون للنص القرآني من القوة والفاعلية والتأثير العميق والفوري ، إلا إذا جسده النبي تجسيدا حيا ومشاهدا وملموسا من المسلمين ، نعم إذا انزل الله نصا قرآنيا محللا زواج مدعي البنوة من مطلقات من كانوا يدعون أنهم أبنائهم ، فلا شك أن هذا النص كان سيطاع ، شان كل ما أنزله الله على نبيه ، ولكن سيكون هناك - في النفس - حرج وعنت ، أما وقد فعله النبي بنفسه - وليس أحد غيره - وقام به ، فقد رفع الحرج والعنت النفسي عن المسلمين في هذا الأمر ." وقد شاء الله أن ينتدب لإبطال هذا التقليد من الناحية العملية رسوله - ﷺ - وقد كانت العرب تحرم مطلقة الابن بالتبني حرمة مطلقة الابن من النسب ، وما كانت تطيق أن تحل مطلقات عملا ، إلا أن توجد سابقة تقرر هذه القاعدة الجديدة ، فانتدب الله رسوله ليحمل هذا العبء فيما يحمل من أعباء الرسالة ، وسنرى من موقف النبي - ﷺ - من هذه التجربة أنه ما كان سواه قادرا على احتمال هذا العبء الجسيم ، ومواجهة المجتمع بمثل هذه الخارقة لمألوفه العميق ! " [٨٤].

" وكانت هذه إحدى ضرائب الرسالة الباهظة ، حملها رسول الله - ﷺ - فيما حمل ، وواجه بها المجتمع الكاره لها كل الكراهية . حتى ليتردد في مواجهته

٨٤- في ظلال القرآن - سيد قطب - المجلد الخامس - صفحة (٢٨٦٤)

بها وهو الذي لم يتردد في مواجهته بعقيدة التوحيد ، وذم الآلهة والشركاء وتخطئة الآباء والأجداد " [٨٥] .

هنا نجد التطابق الكامل بين العقيدة وصاحبها ، محمد يجسد العقيدة أو العقيدة مجسدة من خلال محمد ، وأول من يطبق القرآن بشكل عملي محمد ومحمد أول تطبيق للقرآن بشكل عملي ، هنا يبرز مفهوم ((القدوة)) ، كأوضح ما يكون ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ الأحزاب: ٢١

وللتطابق الإنساني بين الرسول والعقيدة فإنه في مرات عديدة أنفذ الله – تعالى – إرادة نبيه حتى لو كانت مخالفة للمراد والمقصد الإلهي ، **وذلك يرجع لأمور منها :**

- ترك الفرصة للنبي والمسلمين ، أن يقارنوا بين مقصدين أو مرادين ، المقصد والمراد البشري ، الذي قصده وأراده النبي والمسلمون ، والمقصد والمراد الإلهي .
وطبيعي أن يكون المقصد البشري به الكثير من النقص والانحراف ووقتي ومحدود ، وخاضع للظروف والأحوال الملحة ، والتي ربما يكون لها ضرر وأذى على المدى البعيد ، وتخالف وتعارض أساس من أسس العقيدة ، وإن كانت لها نفع وفائدة على المدى القريب ، وتحل أزمة وقتية وتتيح الخروج من مأزق طارئ .
- الثقة المطلقة فيما يأمر به الله ، حتى لو غابت وأضمرت المقاصد والغايات عن المسلمين ، فأنت لا تستطيع أن تستشف من الأحداث ، أو تكشف لك الأحداث والمواقف ، ما يمكن أن تصل من خلاله إلى التصرف الصحيح لما يتفق ويتسق لروح العقيدة ، في تلك الحالة ما على المسلمين – والنبي – سوى

٨٥- المصدر السابق – صفحة (٢٨٦٩)

إطاعة أمر الله فالطاعة فى حد ذاتها هى المقصد الأول والأخير، علم الهدف أو الحكمة أو جهل وبالتالي عدم مناقشة أو مراجعة الأمر.

- أن يعتمد المسلمون على أنفسهم فى تسيير أمورهم وتصريف شئونهم مستهدين عقولهم ومسترشدين بفكرهم، ومجتهدين ما وسعهم الاجتهاد، أن يصلوا إلى ما ينفعهم في دينهم وأخراهم أولا، ثم يفكرون فيما ينفعهم فى دنياهم في المرتبة الثانية. وإن كان ما ينفع في الآخرة متضمنا - ولا شك - النفع أعظم النفع في الدنيا، فما له نفع في الآخرة الأجدر أن يكون ذا نفع فى الدنيا، وليس العكس.
- التأكيد على بشرية الرسول، وأن كل أفعاله وأقواله ليست وحيا من عند الله وأنه في بعض تلك الأقوال والأفعال قد لا يصادف الصواب ولا يصيب الحق؛ لذلك يجب أن يكون الرسول رقيبا على نفسه، والمسلمون رقباء عليه.

- **موقف أسرى (بدر)**

فالرأى الذي انتهى إليه الرسول ومعه أغلب المسلمين هو قبول الفداء، هذا المبدأ أو الرأى يتفق ويتسق مع شخصية الرسول؛ لأن الرسول يضع كل شيء في سياقه ومحراه الزمني والنفسي والاجتماعي، فلم يكن الرسول بغافل عما يعانيه المهاجرون في أول عهدهم بالمدينة، فهم ((عالة)) على الأنصار،نعم لقد ظهر إيثار الأنصار، وصور كرمهم وسخائهم الذي صار مضرب المثل، وأثنى عليهم الله - عز وجل - في كتابه الكريم، ولكن كل هذا لم يغير من حقيقة ووضع المهاجرين،وأن هناك غصة في نفوسهم، فقد تركوا كل شيء وراءهم فى مكة فرارا بدينهم واستجابة لأمر رسولهم، لذلك كان الرسول يترصد لعير قريش، يريد أن يزيل من نفوسهم بعض ما يشعرون به، ويضمد جرحهم، ويجبر انكسارهم، وهو ما خرج إلا ليعترض عير قريش بدليل قوله - ﷺ : ((هذه عير قريش فيها أموالهم، فأخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها)).

وتطور الأمر ، وانتهى بالرسول والمسلمين إلى القتال كما هو معروف والكلمات التى تضرع بها الرسول إلى الله قبل بداية المعركة تكشف بجلاء ووضوح عن الشاغل الذي كان يشغل الرسول . يقول الرسول متضرعا : ((اللهم إنهم جياع فأشبعهم ، اللهم إنهم حفاة فأحملهم ، اللهم إنهم عراة فأكسهم ، ففتح الله له يوم بدر ، فانقلبوا حين انقلبوا وما بينهم رجل إلا وقد رجع بحمل أو حملين واكتسوا وشبعوا)) .

إذن حالة المهاجرين لم تغب لحظة عن بال الرسول : " إن الجوع والعري عندما يطول أمدهما يتركان في النفوس ندوبا سيئة ويدفعان الأفكار في مجرى ضيق كالح " [٨٦] .

ومع أن أمور كثيرة دفعت الرسول والمسلمين إلى قبول الفداء ، فإن الر ل لم يخلص إلى هذا الرأي إلا بعد مشاورة ومراجعة من الصحابة " إذ يروى ابن أبي شيبة والترمذي وصححه ، وابن مردوية والبيهقي في الدلائل عن ابن مسعود قال : لما كان يوم بدر جيء بالأسارى فقال أبو بكر : يا رسول الله ! قومك وأهلك استبقهم لعل الله أن يتوب عليهم . فقال عمر بن الخطاب : يا رسول الله ! كذبوك وأخرجوك وقاتلوك ، قدمهم فاضرب أعناقهم . وقال عبد الله بن رواحة : انظر واديا كثير الحطب فأضرمه عليهم نارا ، فقال العباس – وهو يسمع ما يقول – قطعت رحمك ، فدخل النبي ﷺ ولم يرد عليهم شيئا ، فقال أناس : يأخذ بقول أبي بكر وقال أناس : يأخذ برأي عمر . فخرج رسول الله ﷺ فقال : ((إن الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن ، وإن الله يشدد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة ، مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم عليه السلام ، قال : ﴿ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ إبراهيم:٣٦ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى عليه السلام قال: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ المائدة ١١٨

٨٦- فقه السنة – الشيخ محمد الغزالي – صفحة (٢٠٧)

ومثلك يا عمر كمثل موسى عليه السلام إذ قال : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾يونس. ٨٨ . ومثلك يا عمر كمثل نوح عليه السلام إذ قال : ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ ﴾نوح: ٢٦ .

ثم قال ﷺ : انتم عالة فلا ينفتلن أحد من الأسرى إلا بفداء أو ضرب عنق • ٨٧.

إذن ما يتحكم فى الأمر هنا هي طباع رجال ونفسيات بشر ، والأمر متأرجح بين الشدة واللين ، هل يكون الرسول مع حزب الذين يميلون إلى اللين ، أم مع الذين يميلون إلى التشدد ؟

وكان من اليسير معرفة أي الأمرين سيختار الرسول ، وبرأي من سيأخذ . "عندما تشاور الرسول مع أصحابه في شأن الأسرى فقد سكنت نفوسهم إلى افتدائهم بالمال . وقد كانت الملاحظة في ذلك هي الجمع بين الرحمة والرفق بالأسرى ، عسى أن يرعوا ويؤمنوا بالله . والتعويض عما فات المهاجرين من أموالهم التي تركوها في مكة عسى أن يقع موقعا لديهم ويساعدهم على إصلاح شؤون دنياهم . وهذا الرأي الذي سكنت إليه نفس رسول الله ﷺ يدل على مدى شفقته على أصحابه . وهذه الشفقة هي التي جعلت يده ﷺ ترتفع بالدعاء للمهاجرين لما رآهم لدى خروجهم إلى بدر وإن علائم الحاجة والفقر بادية عليهم ((اللهم إنهم حفاة فأحملهم . اللهم إنهم عراة فأكسهم وإنهم جياع فأشبعهم))"٨٨

ومع أن هذا السياق النفسي ، وما تتطلبه الأحوال والظروف ، ومع ما يتفق مع مكونات شخصية الرسول من الرحمة واللين وما يشير به الفكر والمنطق كل هذا أسير اللحظة ومتقيد بالأحوال والظروف .... إلا أن كل هذا يخالف مقصود الله –

٨٧- اجتهاد الرسول – الشيخ عبد الجليل شلبي – صفحة (١٠٨ – ١٠٩)
٨٨- فقه السيرة – د . محمد رمضان البوطي – صفحة (١٧٧)

عز وجل – ومراده ، أن يربي المسلمين عليه . فقد ضحى المسلمون بكل شيء، وتركوه وراء ظهورهم ، وفروا وفازوا بالدين وحده حينما هاجروا من مكة إلى المدينة ورخص كل غال في سبيل الدين ، وصغر أمر الدنيا ومتاعها أمام أمر الآخرة ، وما أعده الله لهم من رضوان ونعيم ، فما بالهم الآن بعد أن نصرهم على أعدائهم ينظرون وينتظرون الحطام ، بل تصاعد الأمر بهم أن تنازعوا في أمر الغنائم ، " ومن هذا القبيل تسابقهم إلى حيازة الغنائم ومحاولة كل فريق الاستئثار بها . عن عبادة بن الصامت قال : خرجنا مع النبي فشهدت معه بدرا فالتقى الناس ، فهزم الله العدو فانطلقت طائفة في آثارهم يطاردون ويقتلون ، وأكب طائفة على المغنم يحوزونه ويجمعونه ، وأحدقت طائفة برسول الله يصيب العدو منه غرة ، حتى إذا كان الليل وفاء الناس بعضهم إلى بعض ، قال الذين جمعوا الغنائم : نحن حويناها ، وليس لأحد فيها نصيب ، وقال الذين خرجوا في طلب العدو : لستم أحق بها منا .. نحن نحينا منها العدو وهزمناه ، وقال الذين أحدقوا برسول الله : خفنا أن يصيب العدو منه غرة فاشتغلنا به ، فأنزل الله ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ الأنفال: ١ فقسمها رسول الله بين المسلمين " [٨٩] .

إذن الأمر هنا ليس أمر اتساق مع نفسيات الرجال بعضهم يجنح نحو الشدة والآخر نحو اللين ، وليس الأمر اتساق مع ظروف وأحوال المسلمين ، ولكن الأمر يجب أن يتسق نهايته مع بدايته . لقد باع المسلمون كل شيء في سبيل الله حتى أنفسهم باعوها لله ، وبايعوا الرسول ، أنصارهم ومهاجروهم ، واستشهد منهم من استشهد ، صادقين وعدهم مع الله ، لذلك فمجرد التفكير في أمر الغنائم – في هذا السياق – أمر لا يجوز ، بل إن بعض المفسرين فسر الآية ﴿ مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ

٨٩- فقه السيرة – الشيخ محمد الغزالي – صفحة (٢٦)

حَكِيمٌ ﴾ الأنفال: ٦٧ ، أي ما كان يجوز للمسلمين أن يبقوا على أحد في ميدان المعركة انتظارا للمن أو الفداء ، وإنما كان يجب قتلهم فلا يبقى من الكفار أسير "وقال ابن جرير في معنى الآية : ((الأسر)) في كلام العرب معناه الحبس فالمعنى: ما كان لنبي أن يحتبس كافرا قدر عليه وصار في يده من عبدة الأوثان للفداء أو المن ، فالله سبحانه وتعالى يعرف نبيه أن قتل المشركين الذين أسروهم يوم بدر وفاداهم كان أولى بالصواب من أخذ الفدية منهم وإطلاقهم ، ومعنى ((يثخن في الأرض)) أي يعظم شأنه ويغلظ بأن تتم له القوة والغلب فلا يكون اتخاذه الأسرى سببا لضعفه أو قوة أعدائه ، قال الواحدي : الإثخان في كل شيء عبارة عن قوته وشدته ، يقال : قد أثخنه المرض إذا اشتد عليه ، وكذلك أثخنه الجراح والثخانة الغلظة فكل شيء غليظ فهو ثخين " [٩٠] .

إذن كان يجب أن يحسم الأمر أثناء المعركة ، وكل من وقع بأيدي المسلمين من المشركين يقتل ، بحيث لا تظهر مشكلة بعد المعركة ، ماذا يفعل بالأسرى ؟ فقتل أسير بعد انتهاء المعركة على أي حالة من الحالات سيثير من اللغط الكثير وقد يؤجج مشاعر، ويثير أحقادا لا مبرر لها ، بل قد ينقسم الأمر بين المسلمين بشان هؤلاء الأسرى كما حدث .

أما وقد بدأت المشكلة ، فلابد أن نصل إلى خاتمتها ، وكانت فرصة أن يعلم الله – عز وجل – المسلمين بطريقة عملية ، وبتجربة توافرت لها كل العناصر الفعالة ليخرج الجميع بعد ذلك بالعظة والعبرة والدرس ، وإلا فإن الله كان قادرا أن يوحي إلى نبيه أو يلهمه التصرف الواجب والإجراء الحق في شأن أسرى بدر .

وتلك أول معركة للمسلمين ، وقدر الله النصر على عدوهم ، ولكن كان يجب أن يكون هناك نصر في ميدان آخر ، وعلى عدو آخر ، أما الميدان فهو النفس، والعدو هو حب الدنيا والتكالب على المادة ، لأن هذا من أهم المعارك التي يجب على

٩٠- اجتهاد الرسول – الشيخ عبد الجليل شلبي – هامش صفحة (١١٠)

المسلمين أن ينتصروا فيها وهو جهاد وكفاح أمر وأشق من كفاح السلاح ، " ولكن الحكمة الإلهية لم ترد للمسلمين أن يجعلوا من النظرة إلى المال ميزانا أو جزء ميزان للحكم في قضاياهم الكبرى التي قامت على أساس النظرة الدينية وحدها ، وهم أمام أول تجربة من هذا النوع ، أن يجرى ذلك مجرى القاعدة المطردة فتستولى النظرة المادية على مثل هذه الأحكام التى ينبغى أن تظل متسامية في علياء لا يطولها شيء من أغراض الدنيا على اختلافها ، ومن الصعب لمن سار وراء الدنيا واستطاب مذاقها أن يرتد ويقطم نفسه عن مذاقها "[٩١] .

ولكن أما كان الأجدر أن يجنب رسول الله هذا الموقف العصيب والتشديد على نفسه ؟

لقد بكى بعدما نزلت الآيات توضح له ما كان يجب عليه أن يفعله . ر يقص علينا ما حدث " قال عمر : فغدوت إلى النبي عليه الصلاة والسلام وأبي بكر وهما يبكيان ! فقلت يا رسول الله أخبرني ماذا يبكيك أنت وصاحبك ؟ فإن وجدت بكاء بكيت ، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما ! فقال رسول الله ﷺ للذي عرض على أصحابك من أخذهم الفداء ، قد عرض على عذابكم أدنى من هذه الشجرة – لشجرة قريبة ، وأنزل الله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ الأنفال ٦٧ – ٦٨

ربما من ضمن العبر والعظات والدروس التي خرج المسلمون وأراد الله – عز وجل – توجيه الانتباه والأنظار إليها أن بينهم رسول بشر ، وإنه كسائرهم يفكر ويوازن ويقارن بين الأمور ، ويقرر بناء على ذلك ، وقد لا يصيب قراره المقصد الإلهي بناء على أنه بشر ، وأنه عالج التفكير ، وإن قراره كان نتيجة التفكير والمشاورة لأصحابه ، " دلتنا هذه الواقعة على أن النبي ﷺ كان له أن يجتهد ، والذين ذهبوا

٩١- فقه السيرة – د محمد رمضان البوطي – صفحة (١٧٧- ١٧٨)

إلى هذا – وهم جمهور علماء الأصول – استدلوا على ذلك بمسألة أسرى بدر. وإذا صح للرسول أن يجتهد صح بناء على ذلك أن يخطئ في الاجتهاد ويصيب غير أن الخطأ لا يستمر، بل لابد أن تنزل آية من القرآن تصحح له اجتهاده، فإذا لم تنزل آية فهو دليل على أن اجتهاده ﷺ قد وقع على ما هو الحق في علم الله تعالى "[٩٢].

ولكن أليس هذا الخطأ وعدم التوفيق في الحكم، وعدم السداد في الرأي، لا ينال من شخصية رسول الله لا سيما وأن هذا لم يعتم عليه ولم يدار، وإنما يسجله القرآن، ويظهر أمره على رؤوس الأشهاد ؟

ألا يجعل هذا الأمر المسلمين يشكون أو يرتابون في كل قول أو فعل صادر من الرسول، وبناء على ذلك هم ينتظرون تعقيب من الله على أقوال وأفعال الرسول فإما أن ينزل قرآن يصوب ويسدد رسول الله، وإما لا ينزل قرآن دلالة على توفيق الرسول في القول والفعل ؟

الأمر لا يسير على هذا المنطق، فإن المسلمين مكلفون بإتباع الرسول أصاب الرسول أم لم يصب، فهذا الإتباع هم مثابون عليه، والاجتهاد الذي سار عليه الرسول هو أيضا مثاب عليه، أما الوصول إلى مقصود الله – عز وجل – فلا أحد يعلم بأمر هذا المقصد، وليس الجهل أو عدم معرفة المقصد الإلهي ذنبا يعاقب عليه الرسول، حتى لو فعل خلاف هذا القصد. إذن هناك أمران، الأول اجتهاد الرسول، والمسلمون مكلفون بإتباعه في كل الأحوال، ولهما ثواب الاجتهاد وثواب الاتباع. الأمر الثاني، عدم قدرة النبي معرفة ما في علم الله – عز وجل – فإن لم يصل إلى مراد الله، فليس عليه وزر، ولا يسمى هذا خطأ، فهذا الأمر متعلق بمحدودية علم الرسول وسعة علم الله " قد يستعظم البعض نسبة الخطأ على رسول الله ﷺ متوهمين أن الخطأ هو الإثم أو الانحراف، أو نحو ذلك، ينافي مع العصمة الثابتة للأنبياء، غير أن المقصود بالخطأ هنا عدم مطابقة اجتهاده ﷺ لما هو

٩٢- فقه السيرة – د. محمد رمضان البوطي – صفحة (١٧٦)

الكمال الثابت في علم الله عز وجل ، وهو لا يتنافى مع عصمته ﷺ ، بل هو مثاب من الله تعالى عليه ، والناس مكلفون بإتباعه في ذلك ما لم تتنزل عليه آية تصرفه إلى حكم آخر يتعلق بعلم الله تعالى . فأما اجتهاده بالنسبة للطرف الأول ، فلا يوصف بالخطأ البتة ، لأن الناس مكلفون بإتباعه على كل حال كإتباعهم لسائر المجتهدين من بعده ، إذ لا سبيل لهم بالاطلاع على الخفي الثابت في علم الله عز وجل . وأما اجتهاده بالنسبة للطرف الثاني أي المعلق بعلم الله عز وجل فخاضع لوصفي الصحة والخطأ ، إذ هو قابل لموافقة ما هو الكمال الثابت في علمه عز وجل ولقد كان عليه الصلاة والسلام يرقى في الكمالات متجاوزا المراحل التي كانت تتدولة نقصا وتقصيرا بالنسبة لما ارتقى إليه بعد وكان يستغفر الله من تلبسه بها كاستغفارنا من الذنوب ويقول : إنه ليعان على صدري فاستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة "[٩٣].

○ قضية الأعمى وميزان الرجال.

نفس المنطق الذي كان يحكم قضية فداء أسرى بدر ، هو الذي يحكم قضية الأعمى هنا ، والجامع بين الاثنين هو شخصية الرسول ، والمنطق هو الاحتكام إلى ميزان لتقدير أمور وقضايا معينة ، وهو ميزان حق وعدل ؛ لأنه ميزان مستمد من جوهر الدين وليس مستمد من عرض الدنيا ، ميزان لا تؤثر فيه الحاجات الوقتية الملحة ، ولا يراعى الحالات النفسية العارضة للناس ، ولا أهوائهم وأغراضهم ، لأن تلك الحاجات الملحة والأهواء والأغراض تستنفد وتقضى بأتفه الوسائل ، وتحسب على الإنسان ، لأنه استبدل بها أهدافا أخرى ، فقد ترك الأرقى والأسمى ، وأخذ الأدنى والحقير ، فالمسلمون في أسرى بدر نظروا إلى ما ينفعهم في دنياهم من ناحية وراعوا – إلى حد ما – القرابة والعلاقة التي كانت تربطهم بالكفار ، وما كان لهم أن ينظروا إلى ما ينفعهم أو يصلح حالهم في الدنيا ، وإنما ينظرون إلى ما ينفع دينهم

٩٣- المصدر السابق – صفحة (١٧٦)

ويصلح حالهم في الآخرة ، كذلك كان يجبَ أن تبت وتقطع علاقتهم بالكفار ، لأن بقاء هؤلاء على الكفر وإصرارهم عليه ، ودخول هؤلاء في الإيمان وتمسكهم به قطع كل العلائق والوشائج والأواصر بين الفئتين ، فالعلاقة المعترف والمقر بها هي علاقة الدين ، والكفار ليسوا بني العم والعشيرة والإخوان ، كيف ، وقد حملوا السلاح وأرادوا تبديد شمل المسلمين ، وقد قالها أبو جهل قبل المعركة ((واللات والعزى لا نرجع حتى نفرقهم في الجبال ... خذوهم أخذا)) .

المشهد : النبي جالس مع جماعة من زعماء قريش ، يدعوهم ويحاول أن يقنعهم بالدخول في الإسلام ، ويأمل أن يوفق في ذلك ،ولم يغب عن الرسول أن في إسلام هؤلاء النفر من الزعماء مكسبا كبيرا للإسلام وللمسلمين ، فمن ناحية سيعز الإسلام بهم ، ومن ناحية أخرى سيفتت جبهة من جبهات المعارضة للإسلام أي أن الرسول – في تلك اللحظة – في اجتماع علي مستوى كبير من الأهمية ، ومع عدد من الزعماء والأكابر ، يدخل ((عبد الله أبن أم مكتوم)) – وكان كفيف البصر – يتلمس طريقه إلى حيث يجلس الرسول ، وعلى ما يبدو هو لم ير انهماك الرسول وجلوسه مع هؤلاء ، وقال مقاطعا : أقرئني وعلمني مما علمك الله يا رسول الله .

لو كان هناك سكرتارية ، أو طاقم من المساعدين ، أو من ينظمون أعمال الرسول ، لطلب من ((عبد الله ابن أم مكتوم)) الانتظار ريثما يفرغ الرسول مما بيده ، ثم يأتي دور الرجل ، لاسيما وأن هؤلاء كانوا جلوسا مع الرسول قبل مقدم الرجل ، ولكن الأمر أكبر من هذا ، وليست تلك القضية التي لفت نظر الرسول إليها .

فربما حدثت في نفس الرسول مقارنة بين زعماء قريش وهذا الرجل فرجحت كفة الزعماء ، وربما لم يرد الرسول أن يتحرك في نفس هؤلاء الزعماء أن يربطوا بين مكانتهم ومنزلتهم وبين هذا الأعمى ، وإنهم وهو سيصبحون سواء في الدين ، فهم يأنفون أن يتساووا مع المستويات الدنيا من الناس ، فأراد الرسول أن يعالج تلك النعرة من التكبر والعجب ، ريثما يدخلوا في الإسلام ، وهو يعلم أن

الأيام وعظمة قيم ومبادئ الإسلام كفيلة أن تداوي وتمحو هذه النعرة والتكبر والعجب .

وربما إذا انصرف الرسول إلي الأعمى قد ينصرف عنه الزعماء ، فوقتهم وعظيم أشغالهم وانشغالهم لا تسمح أن يعطوا للرسول وقتا إضافيا حتى ينتهي وربما يتوقع الرسول أنه إذا انصرف إلى ((عبد الله ابن أم مكتوم)) سينصرف الزعماء ، وهذا ليس توقعا ، وإنما شيء مؤكد " قال صاحب المنار في ذلك : اجتهد ﷺ في الإعراض عن الأعمى عندما جاءه وهو مشغول بدعوة أكابر قريش إلى الإسلام ، وقد لاحت له بارقة رجاء في إيمانهم بتحدثهم معه ، فعلم ﷺ أن إقباله على الأعمى قد ينفرهم ويقطع عليه طريق دعوته ، وقد كان يرجو بإيمانهم انتشار الإسلام في جميع العرب ، ولم يكن يعلم حينئذ أن سنة الله في البشر أن أوساطهم دون الأكابر المجرمين المترفين الذين يرون في إتباع غيرهم ضعة بذهاب رياستهم"[٩٤]

وانزل الله على النبي ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ۝١ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ۝٤ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴾عبس:١-١٠." وأخرج الترمذي والحاكم ابن حبان عن عائشة قالت : نزلت في ابن أم مكتوم الأعمى ،قال: يا رسول الله أرشدني ! – وعند النبي ﷺ وجوه المشركين منهم أبو جهل وعتبة بن ربيعة وغيرهما – فجعل النبي يعرض عن ابن مكتوم ويقبل على غيره"[٩٥]

إذن كل ما فعله الرسول شيء منطقي ، وتحتمه طبائع الأمور وتوجبه سياسة ونظر واعتبار الداعية لأي عقيدة في بداية أمرها .

نعم ، شيء منطقي وتحتمه طبائع الأمور وتوجبه سياسة ونظر واعتبار الداعية ، ولكن كل هذا يختلف – أو يجب أن يختلف – مع أسلوب وطريقة النبي

٩٤- اجتهاد الرسول – الشيخ عبد الجليل شلبي – صفحة (١١١)
٩٥- المصدر السابق – صفحة (١١١)

التي يجب أن يسير عليها ويتبعها ، والتي أرادها الله – عزوجل – والتي تليق وتتفق مع عظمة وجلال شخصية النبي .

فلم يكن للإسلام أن يعز بدخول هؤلاء ، ولكن هم الذين يعزون .

ولم يكن للإسلام أن يشرف بإسلام هؤلاء ، ولكن هم الذين يشرفون.

ولم يكن للإسلام أن يكسب بدخول هؤلاء ولكن هم الذين يكسبون .

فما سبب حرصك على هؤلاء أيها الرسول الكريم ؟!

وما سبب تعجلك ومحاولتك أن تقنعهم ؟!

يجب أن تفرق أيها الرسول – في المعاملة – بين من تسعى إليه سعيا ، ومن جاء يسعى إليك سعيا .

يجب أن تفرق بين من استغنى عنك وعن الدخول في الإسلام ، وبين من أراد أن يغتني بك وبالإسلام .

ويجب أن يختلف أسلوبك وطريقتك فلا تتصدى لمن استغنى ، ولا تنصرف أو يشغلك شيء عمن جاءك يريد الهدى .

ربما يكون هذا الرجل المنفرد الضعيف الهين الشأن في نظرك ونظر الآخرين أكرم عند الله وأثقل في ميزان الحق والعدل من كل هؤلاء الأشراف والزعماء ، وذلك هو الميزان الذي يجب أن تحتكم إليه في تقدير الرجال ، " مع كل ذلك وجدنا الآيات الكريمة تعاتب النبي – ﷺ – عتابا تارة فيه رقة ، وتارة فيه شدة ، وذلك لأن الميزان الذي أنزله الله – تعالى – للناس مع الرسل ، لكي يبنوا عليه حياتهم هو : ((إن أكرمكم عند الله أتقاكم)) .

ولقد استجاب الرسول الكريم لهذا التوجيه ، فبني حياته كلها بعد ذلك على هذا الميزان العادل ، ومن مظاهر ذلك : إكرامه لابن أم مكتوم وقوله له كلما رآه : ((أهلا بمن عاتبني فيه ربي)) وفعل – ﷺ – ما يشبه ذلك مع جميع المؤمنين

الصادقين الذين كانوا من فقراء المسلمين ، ولم يكونوا أصحاب جاه أو نفوذ أو عشيرة قوية .

لقد جعل زيد بن حارثة – وهو الغريب عن مكة والمدينة – أميرا على الجيش الإسلامي في غزوة مؤتة ، وكان في هذا الجيش عدد كبير من كبار الصحابة .

وقال – ﷺ – في شأن سلمان الفارسي : ((سلمان منا أهل البيت)) .

وقال – ﷺ – في شأن عمار بن ياسر ، عندما استأذن عليه في الدخول : ((ائذنوا له مرحبا بالطيب المطيب)).

وكان من مظاهر تكريمه لعبد الله بن مسعود ، أن جعله كأنه واحد من أهل بيته . فعن أبي موسى الأشعري قال : قدمت أنا وأخي من اليمن ، فمكثنا حينا وما نرى ابن مسعود وأمه إلا من أهل بيت رسول الله – ﷺ – ممن كثرة دخ ' م على رسول الله ولزومهم له .

وقال – ﷺ – لأبي بكر الصديق عندما حدث كلام بينه وبين سلمان وصهيب وبلال في شأن أبي سفيان : يا أبا بكر لعلك أغضبتهم ، لئن كنت أغضبتهم فقد أغضبت ربك ، فقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه .. أن أبا سفيان أتى على سليمان وصهيب وبلال في نفر ، فقالوا : ما أخذت سيوف الله من عدو الله مأخذها ، فقال أبو بكر : أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم ؟ فأتى النبي – ﷺ – فأخبره فقال :((يا أبا بكر لعلك أغضبتهم ؟ لئن كنت أغضبتهم فقد أغضبت ربك ؟)) فأتاهم فقال : يا إخوتاه أأغضبتكم ؟ قالوا . لا ، ويغفر الله لك يا أخي .. "[٩٦]

هنا الله – عز وجل – يعلم نبيه كيف يوزن الرجال ، وكيف يقدرهم ، وما معيار هذا التقدير . بعد ذلك لم يخطئ النبي قط في تقدير الرجال ، وإنما كان بيده الميزان الحق والصدق في تقدير كل من حوله وكان يمنحهم الأوسمة والنياشين التي

٩٦- التفسير الوسيط للقرآن الكريم – د . محمد سيد طنطاوي – المجلد الخامس عشر – صفحة (٢٨٦)

تقدرهم أحق تقدير ، وكانت تلك الأوسمة والنياشين أسماء وصفات يطلقها عليهم فهذا الصديق وهذا الفاروق ، وهذا سيف الله ، وهذا أمين الأمة ، وهذا ترجمان القرآن ، وهذا حبر الأمة ...الخ .

تعلم النبي من ربه – عزوجل – وتعلم أصحابه منه كيف يقدرون الرجال لأن أخطر شيء على أي أمة ، هو الخطأ في تقدير الرجال . وهذا الخطأ يدفع أن نضع الرجل غير المناسب في أهم وأخطر المناصب ، ولقد سار خلفاؤه – ﷺ – على هذه السنة فكانوا يكرمون الفقراء ، فأبوا بكر – رضي الله عنه – أذن لصهيب في الدخول عليه قبل أن يأذن لأبي سفيان وسهيل بن عمرو وعمر رضي الله عنه – يقول في شأن أبي بكر ((هو سيدنا وأعتق سيدنا)) يعني بلال بن رباح "[٩٧]

إذن التكالب على الحياة الدنيا والحرص على ما ينفع في الدنيا – بغض النظر عن الآخرة – والانخداع بمظهر الرجال . وترك الحسب والنسب والشهرة والصيت والغنى يؤثرون في تقديرنا وحكمنا على الرجال ... كل هذا مرفوض في موازين الإسلام .

٩٧- المصدر السابق – صفحة (٢٨٥)